٦

مزان كما قال لما كانت المعانى تتبين بالالفاظ ولم يكن لترتيب المعانى سبيل
الا بترتيب الالفاظ فى النطق تجوزوا فعبروا عن ترتيب المعانى بترتيب الالفاظ
ثم بالالفاظ بحذف الترتيب واذا وصفوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا
اللفظ المنطوق ولكنه معنى اللفظ الذى دل به على المعنى الثانى والسبب انهم
لو جعلوها اوصافا للمعانى لما فهم انها صفات للمعانى الاول المفهومة
اعنى الزيادات والكيفيات والخصوصيات فجعلوا كالمواضعة فيما بينهم
ان يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة التى تحدث فى المعنى والخاصية التى حدثت
فيه ونقلنا صورة مثل وقياس لما ندركه بعقولنا على ما ندركه بابصارنا
فكما ان تبين انسان من انسان يكون بخصوصية توجد فى هذا دون ذلك كذلك
يوجد بين المعنى فى بيت وبينه فى بيت اخر فرق وعبرنا عن ذلك الفرق بان
قلنا للمعنى فى هذا صورة غير صورته فى ذاك وليس هذا مما ابتدعناه بل هو
مشهور فى كلامهم ويكفيك قول الجاحظ وانما الشعر صناعة وضرب من
التصوير هذا نبذ مما ذكره الشيخ ثم انه شدد النكير على من زعم
ان الفصاحة من صفات الالفاظ المنطوقة وبلغ فى ذلك كل مبلغ وقال سبب
الفساد عدم التمييز بين ما هو وصف للشىء فى نفسه وبين ما هو وصف له من اجل
امر عرض فى معناه فلم يعلموا انا نعنى بالفصاحة التى تجب للفظ لا من اجل شىء يدخل
فى النطق بل من اجل لطائف تدرك بالفهم بعد سلامته من اللحن فى الاعراب
والخطا فى الالفاظ ثم قال الفصاحة انما تكون فى المعنى دون اللفظ والفصاحة
عبارة عن كون اللفظ على وصف اذا كان عليه دل على تلك الفضيلة فمنع
ان يوصف بها المعنى كما يمتنع ان يوصف بانه دال ثم انا لا ننكر ان يكون
مذاقة الحروف وسلاستها مما يوجب الفضيلة ويؤكد امر الاعجاز وانما ننكر
ان يكون الاعجاز به ويكون هو الاصل والعمدة ومما اوقعهم فى الشبهة انه لم يسمع
عاقل يقول معنى فصيح **والجواب** ان مرادنا ان الفضيلة التى بها استحق
اللفظ ان يوصف بالفصاحة انما تكون فى المعنى دون اللفظ والفصاحة
عبارة عن كون اللفظ على وصف اذا كان عليه دل على تلك الفضيلة فمنع ان

١٨

ان يوصف بها المعنى كما يمتنع ان يوصف بانه دال **ولها** اى للبلاغة فى الكلام
طرفان اعلى اليه تنتهى البلاغة كذا فى الايضاح **وهو حد الاعجاز** وهو
ان يرتقى الكلام فى بلاغته الى ان يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته
فان قيل ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة وعلم البلاغة
كافل باتمام هذين الامرين فمن اتقنه واحاط به لم لا يجوز ان يراعيهما حق رعايته
فياتى بكلام هو فى الطرف الاعلى من البلاغة ولو بمقدار اقصر سورة **قلنا**
لا يعرف بهذا العلم الا ان هذا الحال يقتضى ذلك الاعتبار مثلا واما
الاطلاع على كمية الاحوال وكيفيتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات
فامر اخر ولو سلم فامكان الاحاطة بهذا العلم لغير علام الغيوب ممنوع
كما ترى وكثير من مهرة هذا الفن تراه لا يقدر على تاليف كلام بليغ
فضلا عما هو فى الطرف الاعلى **وما يقرب منه** ظاهر هذه العبارة ان الطرف
الاعلى هو حد الاعجاز وما يقرب من حد الاعجاز وهو فاسد لان ما يقرب منه
انما هو من المراتب العلية ولا جهة لجعله من الطرف الاعلى الذى اليه تنتهى
البلاغة اذ المناسب ان يوجد ذلك حقيقيا كالنهاية او نوعيا كالاعجاز
فان قيل المراد ان الطرف الاعلى حد الاعجاز فى كلام غير البشر وما يقرب منه
فى كلام البشر فالاول حد لا يمكن البشر ان يعارضه والثانى حد لا يمكنه ان
يجاوزه او المراد ان الاعلى هو نهاية الاعجاز وما يقرب من النهاية وكلاهما
الاعجاز **قلنا** اما الاول فشىء لا يفهم من اللفظ مع ان البحث فى بلاغة
الكلام من حيث هو من غير نظر الى كونه كلام بشر او غيره واما الثانى
فلا يدفع الفساد على ان الحق هو ان حد الاعجاز بمعنى من نهايته اى مرتبة
هى للبلاغة ودرجة هى الاعجاز والاضافة للبيان يؤيده قول صاحب الكشاف
فى قوله تعالى لوجدوا فيه اختلافا كثيرا اى لكان الكثير منه مختلفا قد
تفاوت نظمه وبلاغته فكان بعضه بالغا حد الاعجاز وبعضه قاصرا عنه
يمكن معارضته **وبما ذكرنا** تبين الوهم والغلط ان قوله
وما يقرب منه عطف على هو والضمير فى منه عائد الى الطرف الاعلى الى

احرامس صح

Copyright @ King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)